العلاقة بين العمران و الإنسان في القصور الصحراوية وفق المنظور الإسلامي

الدكتور:العمودي التجاني*
جامعة الشّهيد حمه لخضر -الوادي – الجزائر–
lamoudi-t@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام 2019 /06/12 تاريخ القبول 2019 /08/25

الملخص

مفهوم العمران لا يعتبر مصطلحا جديدا أو مبتكرا، بل هو مفهوم جسدته العمارة التقليدية في مختلف أرجاء العالم منذ القدم عبر التوافق العفوي التجريبي المترابط مع البيئة و الاستغلال الكفء لمصادر البيئة الطبيعية وفق تطور حثيث من التجربة و الخطأ على مر السنين .لقد كانت العمارة الوسيلة الأساسية التي ابتكرها الإنسان لحمايته من ظروف البيئة الخارجية القاسية و ذلك باستغلال مصادر الطاقة الطبيعية كالشمس و الرياح و إمكانيات التربة.

تشتمل تعاليم الدين الإسلامي على الكثير من مبادئ العمران التي تداخلت مع التنظيم الاجتماعي و السلوك الإنساني للمجتمع و التي انعكست على النتاج المعماري سواء على مستوى المعايير التخطيطية للمدن و التجمعات الحضرية أو ملامح العمارة التي استمدت مضمونها من تعاليم الدين الإسلامي الذي كان شريعة الدين و الدنيا للمجتمع .يهدف هذا البحث لتحديد العلاقة بين العمران و الإنسان في العمارة عموما، و المسكن بشكل خاص، في المدينة الإسلامية بمراعاة القيم الاجتماعية و التماشي مع القيم الحضارية من خلال استعر ا ض العلاقة بين الإنسان و البيئة و الحفاظ عليها في المنظور الإسلامي لاستخلاص العلاقة بين الإنسان و العمران في تخطيط المدينة الإسلامية بكل وحداتها المعمارية.

الكلمات المفتاحية: العمران، القصور الصحراوية، الإنسان، المسكن، التنظيم الاجتماعي.

*المؤلف المراسل.

The relationship between urbanism and mankind in desert palaces according to the Islamic perspective

Abstract *:*
The concept of urbanization is not a new or innovative term, but is a concept embodied by traditional architecture around the world since ancient times through the spontaneous experimental compatibility associated with the environment and the efficient exploitation of natural environment sources in the course of a vigorous development of experience and error over the years. Architecture was the basic means created by man to protect him from harsh external environment conditions by exploiting natural energy sources such as the sun, wind and soil potential.
The teachings of the Islamic religion include many principles of urbanization that overlapped with the social organization and human behavior of society, which reflected on the architectural output, both at the level of the planning standards of cities and urban communities, or the features of architecture whose content was derived from the teachings of religion. The Islamic who was the law of religion and the world of society. This research aims to determine the relationship between urbanand human in architecture in general, and housing in particular, in the Islamic city by taking into account social values and conforming to cultural values by exposing the relationship between man and the environment and preserving it in the Islamic perspective to draw the relationship Between man and urban in the planning of the Islamic city in all its architectural units.

Keys Words: Urbanism, Desert palaces, People, Housing, Social Organization

مقدّمة:

لم تغفل الشريعة الإسلامية ظاهرة العمران، وعرفوها بأسماء متعددة حيث صنفها ابن خلدون ضمن الاجتماع البشري، وأنها مرتبطة بفطرة الإنسان، فقال:(..الإنسان مدني الطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران...ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، ولما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم)[1]

و تعرض الفارابي لها عبر مفهوم المدينة، وصنفها على أساس قيمها الأخلاقية، فقال: (فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة..،و المدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان،وعلى حفظها عليه)[2].استند

الفكر التصميم ي للمسكن التقليدي على استخدام الفناء الوسطي كنقطة مركزية لتحقيق مبدأ التوجه نحو الداخل .

إن استخدام الفناء الوسطي أحد أهم المبادئ التصميمية في عمارة مختلف الحضارات في العالم رغم التباين في البيئات الحضارية و الطبيعية، و هذا نابع من قدرة البناء ذي الفناء الوسطي على التكيف مع مختلف الظروف من حيث تحقيق الكثير من المتطلبات البيئية و الحضارية و الجمالية و الاجتماعية مثل الخصوصية و التوجه نحو الداخل .

المسكن في هذا النمط وبإطلالته على الفناء الداخلي يحقق مزايا منها الخصوصية لساكنيه والبيئة المحلية الألطف جوا وإمكانية التوسع بحسب حجم العائلة، هذا التوجيه إلى الداخل يسمح بتقليل الفتحات الخارجية وبالتالي يؤدي إلى تحقيق الخصوصية البصرية والسمعية.

الجانب الاجتماعي :

يحقق الأمان الاجتماعي للسكان والذي يمكن توضيحه في الآتي:

- يساعد هذا النمط على توفير فراغات آمنة.
- يحقق هذا النمط إمكانية فصل حركة المشاة وبالتالي يوفر مكاناً آمناً لمزاولة الأنشطة الاجتماعية من مقابلات ولقاءات وتعارف كما يسهل تحسين علاقات الجيران وبالتالي يعتبر مكان معيشة خارجي للسكان.
- إمكانية تحقيق ربط مناطق المشاة بالأحياء السكنية بمناطق المشاة في مركز الحي السكني

الذي يحتوي على الخدمات العامة للسكان .الحي السكني أو في المدينة وذلك بأن تكون أداة خدمة للساكنين وليس مظهراً طاغياً على المدينة، وذلك بأن يتيح إعطاء أولوية لحركة المشاة وبما تحتاجه هذه الحركة من عوامل تساهم في تشجيعها،وقد أشارت دراسة إلى أن هذا النمط يؤدي إلى خلق فراغات إيجابية يشعر السكان فيها بالراحة ويستعملونها في أنشطتهم اليومية ،لأنه يوفر لهم الأمن والإحساس بالأمان ، وفي نفس الوقت يصعب انتشار الجريمة داخل تلك الفراغات لصعوبة دخول غرباء أو متطفلين إليها. كما أنها تتوفر على فراغات شبه خاصة تعطي فرصة للتعارف بين السكان ويقوي الروابط الاجتماعية . كما يوفر فراغات داخل المسكن تتحقق فيها الخصوصية التامة أي أن هذا النمط يساعد على توفير سلسلة من الفراغات تبدأ من توفر أماكن للعب الأطفال أمام المساكن ، ثم فراغات لتقابل ولقاء السكان في الخدمات المركزية ثم فراغات على مستوى المدينة أي أن الفراغات تساعد على تنمية روح الجماعة، وكان ذلك واضحاً في معظم التخطيطات في القصور الصحراوية لأنها كانت تشمل على ممرات أغلبها مسدود من نهايتها.و هو ما يصطلح عليه بالممرات المحدودة.

كما أن المساواة بين أفراد المجتمع هي أحد أهداف الاستدامة الاجتماعية التي تسعى لتحقيق العدالة و التمكين و التواصل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

مفاهيم و قيم :

يعتبر مفهوم وحدة الجيرة من أهم المفاهيم التي استند عليها تخطيط المدينة الصحراوية و ذلك تيمنا بأهمية الجار في الإسلام و ضرورة الإحسان إليه حيث يقول اللّه سبحانه وتعالى : [اعْبدُوُا للّهّ وَلا تشُركِوُا بهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إحِسَانًا وَبِذِي الْقرُبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقرُبَى وَالْجَارِ الْجُنبُ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ...] [3]

كما أن هناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على احترام خصوصية الجار كما أرسى الرسول صلى اله عليه وسلم حماية حقوق الجار البيئية و هي حقه بالحصول على التحرك الهوائي الطبيعي فيقول " :لا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ." [4]

لم تكن العلاقة بين المباني علاقة جامدة، بل دخلت أيضا في تحديد سلوك الساكنين للعقارات، وضرورة احترامهم الآداب العامة، وكان من حق الجيران إجبارهم على ذلك، عن طريق القضاء، وتزخر سجلات المحاكم الشرعية بالعديد من الوقائع التي تؤكد تضامن أهل الخطة أو الحارة ضد المخالفين من سكانها .و ترتب على مبدأ "لا ضرر ولا ضرار"، و"الأخذ بالعرف"، في تقرير أحكام البناء، نشوء مبدأ : "حيازة الضرر"، الذي صاغ المدينة الإسلامية صياغة شاملة . و"حيازة الضرر" تعني : أن من سبق في البناء يحوز العديد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها، وأن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه، وبذلك يصيغ المنزل الأسبق المنزل اللاحق، من الناحية المعمارية، نتيجة لحيازته الضرر، ويسيطر العقار الأسبق على حقوق عديدة يحترمها الآخرون عند بنائهم، فضلا عن الحقوق التي قررها الشرع الشريف في مجال التنظيم العمراني، وكلاهما معا أدى إلى وجود بيئة عمرانية مستقرة، حيث استقرت الفئة المستخدمة على شكل الشوارع التي تستخدمها، والتي يصعب التعدي عليها بالبناء.

ومن هذا المنطلق ولتوضيح كيفية نشأة شبكة الطرق والشوارع بالمدن الإسلامية، ينبغي أن نذكر أن الطريق ملك لجماعة المسلمين، وبالتالي فالسيطرة عليه من حق المارة أو المستخدمين له، فشريعتنا جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، واعتبرته من أدنى مراتب الإيمان، فما بالك بإزالة، أو منع من حاول البناء في الطريق؟.وحيث إن المارة هم المستخدمون، فالطريق يقع تحت سيطرتهم، ولأن كل ساكن في المدينة يمر ببعض الطرق أكثر من غيرها، فهو بذلك عضو في الفريق المسيطر على الشوارع التي يمر بها، لذلك فإن عدد المسيطرين اختلف من طريق لآخر، لاختلاف عدد مرات ترددهم عليه، بناء على موقع الطريق واتجاهه ، وإذا أنشأ حي جديد، فإن البناء فيها يتم عن طريق تتابع البناء

في أماكن هذا الحي، فإذا كثر عدد المارة في مكان ما، فإن هذا الطريق سيكون أكثر سعة، وسيمنع المارة فيه - بناء على حق الارتفاق وحق المرور - أي بناء يضيق الطريق،و بذلك يزحف البناء، وتتجاور الوحدات المعمارية بجوار بعضها بعضا، إلى أن تستقر حدود الطرق تبعا لاستخدام المارة لها .. فالطريق يعكس رغبات وإمكانات وقيم الناس، فهو إنما نتج عن تراكم قرارات القاطنين فيه، وهذه القرارات بنيت على الأسبقية في التصرف كما رأينا، فمن فتح حانوتا قبل جاره المقابل فقد حاز الضرر، وبهذا فإن العلاقة بين الفرق الساكنة ترتبت واستقرت بحيازة الضرر، وكان الطريق وعاء لذلك الاستقرار.

وبناء على ذلك، نستطيع أن نقسم طرق وشوارع المدن الإسلامية إلى ثلاثة مستويات من الطرق:

المستوى الأول :

الطرق العامة، وقد عرف المقدسي هذا النوع من الطرق بأنه الشارع المنفك عن الاختصاص، فالناس كلهم فيه سواء يستحقون المرور فيه، ولا اختصاص فيه لأحد بل هو مشترك عام، الانتفاع لكل من يمر به ، ويمنع من التصرف فيه بما يضر المارة في مرورهم، لأن الحق فيه ليس للمتصرف خاصة بل للمسلمين كافة[5]

المستوى الثاني :

هو الطريق العام الخاص، وهو أقل درجة من الطريق العام، إذ الارتفاق به من قبل سكان التجمع السكاني، يقل عن سابقه، وبالتالي تزداد سيطرة القاطنين بهذا المستوى من الطرق عليه .

المستوى الثالث :

الطريق الخاص، وأفضل أمثلة هذا النوع من الطرق هو الطريق غير النافذ، وهذا النوع من الطرق ملك لساكنيه فقط، ولذا سمي خاصا، بخلاف المستوى الثاني من الطرق، فإنه مشترك بين جميع أهل الطريق وفيه أيضا حق للعامة.

والقاعدة التي استقر عليها الفقهاء في حكم مثل هذا المستوى من الطـــرق، هو أنه يجوز لأي ساكن أن يتصرف في الطريق، بموافقة شركائه فيه . و يدعى في فقه العمران زقاق مشترك الانتفـــــــاع،[6] لقد ترتب على هذا التتابع في مستويات الطرق، أن أصبحت الطـــــــــرق ذات خصوصيات متدرجة، تبعا لوقوعها تحت أي من المستويات الثلاثة السابقة، وانعكست سيطرة الفـرق المالكة للطرق وخصوصيتها، في تكاتف أهل الطريق على توفير الأمن له، من خلال الأبواب التي أقيمت على الحارات والدروب .

نال العمران في الإسلام القسط الوافر، فالمدينة هي شكل من أشكال التجمعات البشرية،يتسم بالكثافة،و التنظيم والتعقيد،وهذا الحجم من التجمع يتولد عنه تعدد وتنوع الحاجات والوظائف،والنشاطات، وقد احتل هذا الموضوع جزءا أساسيا في النظرية الخلدونية للعمران،حيث

صنف العمران إلى عمران بدوي وعمران حضري،أما الفـــارابي فيستعمل مفهوم الاجتماع الناقص والاجتماع الكامل،فالكامل للدلالة على تجمع المدن والأمم،أما الناقص فللدلالة على تجمع القرى [7].وفي هذا الصدد يقول:(...والمجتمعات الكاملة ثلاث مراتب،فأرقاها مرتبة،اجتماع العالم كله في دولة واحدة،وتحت سيطرة حكومة واحدة،وأقل منها كمالا اجتماع أمة في جزء من المعمورة،تحت سيطرة حكومة مستقلة،وأقلها جميعا في الكمال،اجتماع أهل المدينة في جزء من الأمة،تحت سلطة رئيس،والمجتمعات الكاملة،اجتماع أهل القرية،واجتماع أهل المحيلة،وأكثر منها نقصا،اجتماع السكة،وهي جزء من المحلة،وأحطها جميعا منزلة،اجتماع أفراد أسرة في منزل....) [8]

المستنتج من هذا الكلام أن نموذج الاجتماع الكامل،هو النموذج الإسلامي القائم على مبدأ الخلافة الواحدة المحققة لأمر اللّه،على منهاج الخلافة الراشدة،وكل هذا لخدمة الإنسان،فالمدينة الفاضلة في رأي الفـــارابي،هي التي تحقق فيها سعادة الأفراد على أكمل وجه،ولا يكون ذلك إلا إذا تعاون أفرادها على الأمور التي تنال بها السعادة.

وفي هذا الموضوع،يقول:(...فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على أشياء التي تنال بها السعادة..،و المدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح،الذي تتعاون أعضاؤه كلها،على تتميم حياة الحيوان،وعلى حفظها عليه...)[9] فكل هذه الشروط التي وضعها الفارابي لتحقيق سعادة الإنسان،اختصارها الدين الحنيف في قول الرسول صلى اللّه عليه وسلم:(مثل المؤمنين في توادهم،وتراحمهم،كمثل الجسد الواحد،إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[10] ،وهو المبدأ الذي قام عليه الفكر العمراني في الإسلام،ذلك أن الغاية من الاجتماع هو عمارة الأرض،وتحقيق الاستخلاف الحقيقي فيها وإذا كان الاجتماع يحتاج إلى مكان فكلاهما يحتاج إلى عمران،والعمران لا يستتب إلا بالنظام والأمن،ولهذا كان من الضروري أن يحتكم الاجتماع الناجع إلى راع واحد حكيم سماه الفارابي، رئيس المدينة الفاضلة،والأمة الفاضلة،ورئيس المعمورة من الأرض،وقد حدد له خصالا،يجب عليه أن يستوفيها،منها:أن يكون كامل الخلقة، وجيد الفطنة والذكاء،ومحبا للعلم والتعلم،ثم أن يكون محبا للصدق وأهله، مبغضا للكذب وأهله [11]

التكوين العمراني و المعماري للقصر:

يقوم النسيج العمراني للقصر وفق تقاليد معمارية نابعة من الدين الإسلامي الذي يستوجب ضرورة التكافل الاجتماعي وضمان الحرمات،فالمعماري المحلي وفق هذه الشروط عمد إلى إعطاء القصر شكلا معماري راعى فيه الحريات الشخصية للأسرة،وحماية روح الجوار مما يتأكد معه الإحساس بالتقارب الاجتماعي والأسري.

إن التكوين العمراني يتوافق مع روح العقيدة الإسلامية،التي عبر عليها القرآن ،ووجه إليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم،قوله صلى اللّه عليه وسلم((المؤمن للمؤمن كالبنيان،يشيد بعضه بعضا))[12] فالتصور الإسلامي للاجتماع يستوعب أطر الروابط الأولية(القرابة)،والتي تفرض نفسها كهياكل ضرورية تساعد الإنسان على تحديد وجوده،فلا يمكن للإنسان أن يبلغ توازنه،دون أن يضبط ويهيكل هذا الوجود،ومن ذلك ضرورة انتسابه لأبوين،ولأسرة تتزامن مع إطار مكاني(المسكن) يؤطر الكون الأول والأساسي للإنسان،فالمشروع الإسلامي يوازن بين هذه المتغيرات بمجموع القيم الأخلاقية الإسلامية[13].

ومن هذا المنطق جاءت العناصر المعمارية للقصر في هذه المناطق لخدمة فلسفة الاجتماع وفق المشروع الذي حدده الإسلام،فلا يعلو بناء على آخر، وجاءت عمارة القصور كاللحمة الواحدة، بنيت فيه الوحدات المعمارية على شكل مدرج،تبدو فيه المساكن وكأنها معلقة، بسبب طوبوغرافيا الموقع. ونقصد بالتكوينات المعمارية للقصر،تلك المباني الرئيسية،والفراغات الأساسية،التي تشكل الهيكل المادي الفيزيائي العام للقصر،وهي الساحات العامة،والمنشآت الدينية والمدنية،والمرافق العامة:

1-المسجد: من أساس المنشآت في المدينة الإسلامية،فمن خلاله تنطلق الأزقة والدروب المتشبعة في أنحاء القصر،

فقد لا يحتل الموقع المركزي فيها من الناحية المعمارية ،ومع هذا فيبقى المركز المحوري معنويا نظرا لدور الذي يلعبه كنقطة استقطاب، وتوحيد لأطراف القصر،وفي هذا الصدد تبرز أهمية صلاة الجماعة كممارسة دينية تعمل على لم الشمل وتوحيد الجماعة،وذلك من خلال الوظائف التي يؤديها المسجد،في حياة سكانه من عبادة واجتماع واتصال وإعلام، ففيه تعقد كل المواثيق التي تنظم حياة الجماعـــــــــة(قضاء ، زواج ....)،إضافة إلى الوظائف التربوية والعلمية والثقافية. من الناحية المعمارية شكله غالبا ما يكون مربعا أو شبه مربع أو مستطيل، يضم قاعة صلاة في جدار قبلتها محرابا ومنبرا، وقد يحتوي على صحن .

وفي نفس الإطار الديني لعمائر القصر، لا يمكن إغفال الأضرحة و المصليات الجنائزية،المرتبطة أساسا بالمعتقدات الخاصة بأهالي القصر ما تزال راسخة إلى يومنا هذا و التي ترتبط بشخصيات عرفت بالورع و اعتبرت من الأولياء الصالحين و تأخذ قبورهم أشكال عديدة ، و عادة ما تكون في أطراف القصور.

2-المسالك والطرقات: عنصر رئيسي ثان في تشكيل هيكل القصر، وتعد بمثابة شريان القصر الذي يوصل بين مركزه، (المسجد) وبقية منشآته، وهذه المسالك تنقسم إلى قسمين:

2_ أ_ **الشوارع الرئيسية**: تربط القصر بالمناطق المجاورة،أما عن طبيعة عقارها،فهي ملكية جماعية يعود تنظيم استعمالها وصيانتها،ومراقبة أحوالها إلى الجماعة. وقد صممت وفق التشريع الإسلامي المحدد لمقاييس الشوارع،مصداقا لقوله صلى اللّه عليه وسلم ((إذا اختلف الناس في الطريق فحدها سبعة أذرع) [14]

تمتاز بكثرة تعرجاتها، وذلك للحفاظ على حرمة القصر و التعرف على الغرباء بشكل سهل من جهة و من جهة أخرى لكسر التيارات الهوائية، و هي خاصية مناخية تمتاز بها مناطق الجنوب و أفرزت بهذا الشكل الجدران المنحنية،والتي تعمل على عدم تكديس الرمال عندها .

2 –ب - **الأزقة والدروب:**

و هي بمثا بة الـ شرايين الـ تي تت فرع في القـ صر، لربط طر قه الرئي سية مع الأحـ ياء الـ سكنية،وهذه ا لدروب والأز قة ن فذت و فق م عايير احتر مت فيـ ها أخلاق يات الحـ شمة والحر مة، ت خص بـد قة حر كة الن سوة دا خل القـ صر،وبين البـ يوت دون حرج، وغالـ با ما ت كون هذه الأز قة م سقوفة وملتو ية و م حدودة تنت هي بـ باب المـ سكن، لـ توفير ق سط وا فر من الـ ظل ا لذي يـ ضفي على القصر نوعا من الانتعاش خلال فصل الحرارة .

3 - الأسوار و الخنادق:

تعد الحصون والأسوار والخنادق من المباني الدفاعية، فقد ظهرت بوادر العمارة الدفاعـ ية في العـ مارة الإسلامية، و لـذلك قام الرسول صلى اللّه عليه وسلم بحفر الخندق في الجهة الشمالية من المدي نة،و التي كانت معرضـــة للخطر نتيجة نزاعـــــات سياسية،كما أمر بتحـ صين المنـ ـازل الـ تي تقـ ترب من الخندق.و هكذا ظهرت ملامح العمارة الدفاعية كضرورة عمرانـ ية أسا سية، و هي توفير عنـ صر الأ من والاستقرار ومنه حماية المدينة،وتعد من جـ هة أ خرى ر سما حدوديا للـ فراغ القا بل لتعمير،ولـ ها سمة خاصة في المدينة الإسلامية .ومن هنا برز السور كستار ، ومن هنا برز الـ سور كـ ستار للمدي نة يـ لتف حولها،حتى قيل عن المدينة الإسلامية أنها ملفوفة أو مستورة وغير مغلقة [15]

والحديث عن الحـ صن في القـ صور الـ صحراوية (مـ ناطق الدراسة)،يو صلنا إ لى تـ لك الكـ تل المعمار ية الضخمة التي تعرف باسم القصبات، فهي تمثل نموذج العمارة الدفاعية بكل عنا صرها،إذا أنـ ها عـ بارة عن حصن مربع أو مستدير أحيا نا أو مـ ستطيل،يتقدمه سور عالي به مدخلا يتم الو صول إلـ يه عن طريق جسر خشبي،وقد زود السور بأبراج هرمية أو مخروطية الـ شكل في زوا ياه الأربعة،إ ضافة إ لى عدد من المزاغل .

4 - المداخل: فتحة في السور وغالبا ما تكون محصنة بواسطة دعامتين بارزتين من الخارج، حيث يتم الوصول إلى مدخـل القصر عبر جسر خشبي، ذلك لأن القصـر محاط بخندق،يملئ بالماء أثناء الهجوم الخارجي على القصر،أما الباب فهو مصنوع من خشب النخيل .

5- الأبراج: تعتبر الأبراج من عناصر العمارة الدفاعية،فمن خلالها يمكن مراقبة داخل القصر وخارجه،كما تختلف أشكالها وغالبا ما يحتل البرج موقع الزاوية في السور، وقد يحتوي القصر برجين أو أربعة.

6 -الرحبات والميادين: ونقصد بها تلك الفراغات الغير مبنية،والتي غالبا ما أخذت اسم الرحبة في القصور الصحراوية، عادة ما تكون مقابلة للمساجد الجامعة تتعدد وظائفها حسب الفصول و الأوقات والمناسبات.فهي تشكل جزءا هاما في القصر،على الصعيد المعماري نغمة فنية تنسجم وفقها الكتل المبنية مع الفراغات الحرة,فينتج عنها توازن حيوي للقصر،فيها راحة لرؤية ومتنفس للقصر، أما على المستوى الوظيفي يسمـــــــــــح بالممارسات ذات طابع اجتماعي إذ إنها تشكل أهم مجالات اللقاء وتبادل الإعلامي.

المسكن مرآة العلاقة بين العمران و الإنسان :

عرف المسكن من الناحية اللغوية على أنه السكون أي ثبوت الشيء بعد تحركه[16] . ويستعمل في الاستيطان فنقول نذهب إلى مكان سكن فلان أي المكان الذي استوطنه فلان [17] ، والسكن هو الإيواء والانتفاع لقوله تعالى :" واللّه جعل من بيوتكم سكن" (قرآن) حيث أمر الإسلام ببناء السكن لما فيه من حفظ النفس وسترها وأيضا حماية الإنسان من الجو والمناخ والناس، الأمر الذي يحتاج إلى شروط معمارية وبيئية وهي الإيواء ومعناها متانة البيت من الجو البارد والانتفاع أي راحة النظر والسمع و سلامة الصحة وللمسكن مرادفات مثل البيت أو المنزل والدار وتعرف على أنها مكان الإقامة تهيء للناس في مجتمع معين وهو الذي يؤمن استقرار الحياة ويطلق تعبير البيت كاسم سقف واحد له دهليز يتخذ مأوى للإنسان أو البهائم سواء من حجر أو غيره وقد سمي بهذا الاسم لكونه مركب من " بيت الشباب أو بيت الدين أو بيت الإبل (البستاني، ب.ت)" واقترن اسم البيت بمعنى العائلة لأن البيت أو المسكن هو رمز العائلة والمنزل كمصطلح مشابه يعني مكان النزول من ينزل نزولا ومنزلا أي يحل بالمكان وهناك مصطلح الدار أي بيت فلان حتى أن كلمة الدار لها تعبد ديني تردد في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة وحجمها دور فلان وديار وهي تستعمل لذكر الدارين الدنيا والآخرة ونقول دار فلان أي بيت فلان حتى أن كلمة بيت بهذا المعنى تشير إلى البيوت المقدسة " بيت اللّه الحرام " وهناك من عرف المسكن على أنه مكان يتوطن فيه الإنسان[18] كما تعني الإقامة والديمومة والاستمرارية في العلاقة مع المكان السكني أكثر من النزول أو الحلول .

ترتبط هي بدورها بالطابع الاجتماعي السائد في التركيبة العامة للقصبة. تتنوع أشكال وهذا حسب موقعها في الحي لكن الملاحظ أنها تتفق في عناصرها المعمارية .

مقارنة بين أغلب الخلايا السكنية نستنتج أن تنظيمها يقوم أساسا على الصحن(الحوش) الذي يعتبر المركزي الحركي في البيت [19]

كانت للإنارة في البيت تعتمد على الحوش بأشعة الشمس في النهار وبواسطة نوافذ صماء صغيرة في الجدران أين توضع المصابيح الزيتية ..

لا يتعدى البيت في القصر الطابقين، طابق أرضي تتركز فيه أغلب عناصره المعمارية. وطابق علوي به غرفة أو اثنين متعددة الاستخدامات . والسطح المكشوف للاستراحة والنوم في فصل الحر.

تتلاصق مساكن القصر فيما بينها محيطة بمئذنة الجامع, وفي ذلك تأمين لحمايتها والدفاع عنها, ولا نكاد نميز بداية المسكن وأين ينتهي، قل ما نجد في بعض الأماكن من القصر بين مسكن وآخر خرق فاصل [20]والمسكن عموما ذو تخطيط مستطيل وهو أكثر عمقا مقارنة بعرضه [21]فيما هناك من يحدد معدل مقاسات المسكن في القصر تتراوح (15×20) م كما أن هناك مساكن غير منتظمة التخطيط وهذا حتى تستغل الأرضية المتاحة , فقد نصادف فجأة زوايا غير متوقعة[22] وفي أحيان أخرى نجد للمسكن غرفة عل السقيفة) [23]أي فوق المسلك نافذا يكون تنظيم المنشأة الإنسانية التقليدية وفق تسلسل فضائي يلائم خصوصية العلاقات الإنسانية فإذا كانت الساحة هي العنصر الأساسي للحياة داخل القصر فإن الغرفة داخل المنزل تمثل أقصى درجة من الخصوصية الإنسانية.

يمتاز المسكن بطابعة الصحراوي الذي يتوفر على الصحن الداخلي والسطح , وتوجد أشكال مختلفة من المنازل, تطورت داخل القصر يحكمها شيء واحد فقط هو محاولة الاستغلال الأقصى للفضاء العمراني أما وظائف مكونات المنزل الأساسية فهي تخضع وتستجيب لنمط حياة معين ولطريقة إنتاج اقتصادي وعلاقات اجتماعية خاصة[24].

بعد الملاحظة ومحاولة ربط الأزقة والبيوت نجد أن تنظيمها العام يقوم على أسس عمرانية ترتبط جذريا بالعامل الاجتماعي. وبشكل متسلسل حسب الموقع العام للخلية السكنية, كما يدخل هذا الإطار درجة التفتح الاجتماعي العام.

و على هذا الأساس يمكن أن نضع لها تصنيفا عاما على النحو الآتي:

الصف الأول زقاق - المدخل - البيت.

الصف الثاني: زقاق – ممر محدود المدخل – البيت.

الصف الثالث: زقاق ممر محدود ممر محدود – المدخل – البيت.

إن عمارة القصور, جاءت ترديدا لصدى المناخ السائد في تلك المناطق فوفرت تلك المباني البرودة والدفء المنشودين و من خلال إتباعها لأساليب تنفيذية , ظهرت في شكل البيوت, والشوارع والأزقة , في تفاعل مع مادة البناء و كانت المنشآت العمرانية تحمل دلالات الطمأنينة والراحة النفسية[25]. كما

في الوقت ذاته يراعى الزهد في عمارة القصور سبق وأن تحدثنا عن علاقة الإبداع الإنساني , بالفكر المحرك له سواء كان دينيا أو فلسفيا ، فما تصنعه اليدين مصدره وعي وقناعات ونوازع ذهنية ،والعمارة من الفنون التي جسدت هذا التوجه الفلسفي , فقد عبرت دوما عن نوازع هذا الإنسان , الدينية أو الاجتماعية وحتى النفسية , وكان الزهد من بين المبادئ الفكرية , التي جسدتها العمائر الإسلامية الأولى[26].

وفي استيضاح ملامح الزهد , المنعكسة في مرآة عمارة القصور , نجد أجل صورها في البساطة , التي تجلت في مواد البناء , وفي طرق الإنشاء , ولعل تلك البساطة هي التي تضفي عليها صفة الجمال , وهو ما يعكس حالة التكامل المتزن , بين عناصر النية الكلية لذلك الفضاء , الذي يخدم الحياة الاجتماعية لأهالي القصور[27].

لقد جسدت عمارة القصور العديد من الرؤى الفلسفية , انطلاقا من نظرة ساكنيها للجمال الطبيعي , والذي يعد أساس كل جمال على هذه البسيطة[28], ولهذا رأينا أن نفرد لها جانبا من الحديث , فالجمال هو غاية الإنسان في كل عمل , ويتجسد هذا في قول الرسول صلى اللّه عليه وسلم , داعيا إلى ضرورة توخي الإتقان في كل الأعمال , حيث قال : (إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) [29] فنص الحديث يتضمن الإتقان الذي يقتضي عدم الإضرار، فكان من تمام الإتقان مراعاة الوسط الذي تعمل فيه.

إن عمارة القصور الصحراوية في الأقاليم موضوع الدراسة،تأقلمت بشكل كبير مع المناخ الصحراوي السائد في تلك المناطق فوفرت منشآتها المعمارية، و العمرانية البرودة صيفا، و الدفء شتاء ، من خلال إتباع أساليب وطرق بنائية تنفيذية،ظهرت في شكل العمائر بمختلف أنواعها.

اهتمت هذه العمارة أيضا بجانب لا يقل أهمية عن المواد وتقنيه الإنشاء ألا وهو الجانب العلائقي متمثلا في توفير الطمأنينة، والراحة النفسية ، والاجتماعية، السائدة في المجتمعات القصورية، مع البساطة والزهد وفق القيم الدينية التي يربطها فقه العمران.

لم يكن تخطيط هذه القصور تصميمها اعتباطيا بل كان بعد تحليل ودراسة للمناخ و مدى ملائمته لمواد و تقنيات البناء، التي تتوفر بذات المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى على تصميم وحدات سكنيه

خاضعة أيضا للقيم والمبادئ، والتوفيق بين الجانبين يحتاج إلى إبداع إنشائي أثبت القدرة عليه ، و التمكن منه بناؤو القصور الصحراوية ، و هي ذاتها جملة الاستنتاجات ، مستخلصة من جل العمائر القصورية، نوجزها فيما يأتي:

أولا : اعتمد بناءو القصور الصحراوية، على اختيار مواقع محددة، دون غيرها ، تتناسب مع جغرافية الأرض ،و عوامل تاريخية ، سياسية.. توفر قدر من الأمن والأمان وذلك بتوظيف التضاريس الطبيعية

كتحصين يدرج ضمن الإنشاءات الدفاعية.

ثانيا : مراعاة مصادر العيش و الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية المتوفرة في مناطق الإنشاء(وسط واحات نخيل)

ثالثـا:اختيار موقع المسجد الجامع و مركزيته في القصر له دلائل عمرانية، كما له دلائل معنوية تبرز أهمية هذا العنصر المعماري في حياة قاطني القصور .

رابعـا : مراعاة مبادئ فقه العمران المنعكس في تصميم النسج العمرانية ، و خاصة في الوحدات السكنية ، باعتبارها الوحدة الأساسية و صميم منشآت القصور الصحراوية ، التي تمنع التطاول حفاظا على الخصوصية الفردية داخل المجتمع القصوري , و عدم اتخاذ أي إجراء إنشائي فردي ، قد يحدث خللا، داخل النسيج العمراني .

خـامسا: مراعاة التخطيط العام على مستوى المنشآت القصور الصحراوية معالجة الحركية من خلال الشوارع ، والأزقة ، والممرات ،والممرات المحدودة ، بالترتيب المذكور، للتكيف مع البيئة، و المناخ الصحراوي .

سادسا: مراعاة البساطة والزهد في التصميم العام متمثلة في واجهة بسيطة تكاد تتشابه في كل القصور ولا يمكن التفريق بين وحداته السكنية.

سـابعا: توفير طاقة ذاتية طبيعية بدلا عن الطاقة الصناعية المتمثلة في النار بالخصوص لتأثيرها على الصحة أولا والاقتصاد ثانيا إلا في الحالات التي لا يمكن الاستغناء عنها .

ثـامنا : توفير الخصوصية للساكن القصوري، في مسكنه ،بما يتناسب والتعداد، و الوضعيات الاجتماعية المختلفة.

تـاسعا: توفير ما يلبي حاجيات قاطني القصور، و الوافدين عليها، و ذلك بتصميم ضمن مخططات القصور:

-تحديد مسار حركية دائمة للأجانب الوافدين على القصور.

-مجالس و فضاءات في الشوارع وهو ما يسمى محليا " بالدكانات " وهي أماكن لقاء وتجالس و تمتين روابط الجيرة ومن جهة ثانيه مراقبة آنيه لحركة الغرباء داخل القصر.

-مساحات لممارسة الأنشطة الاقتصادية الداخلية ما بين القاطنين أنفسهم لعرض المنتجات الفلاحية المتعددة ذات الاستهلاك اليومي ، و هو ما يسمى في أغلب القصور " بسوق العصر" نسبة لإقامته بعد أداء صلاة العصر مباشرة ، و التي تكون داخل القصور في الساحة العامة ،للإشارة فإن اختيار هذا الوقت بالذات أكثر الأوقات ملائمة و بحسب رأينا لأسباب منها:

ا- اعتدال الجو خلال ميلان الشمس و تناقص أشعتها خاصة في فصل الحرارة.

ب- عودة معظم قاطني القصور إلى مساكنهم في الفترة المسائية من أعمالهم.

ج- فقهيا هي فترة لا تقام فيها صلاة النافلة بعد الفريضة.

-الأسواق الأسبوعية التي تخصص لها فضاءات خارج القصور للتزود بما يطلق عليه في القصور الصحراوية ب " العولة " و ذلك في إطار نظام المقايضة الأكثر تداولا في المعاملات التجارية في ذلك الوقت.

خاتمة :

خلاصة القول إن العمارة الصحراوية هي نتاج فكري بين أفراد وجماعات أي مجتمع ، و هي نتيجة لقناعات ذلك المجتمع المنتج لهذه البيئة العمرانية , والتي لم تتكون مرة واحدة أو وليدة الصدفة , ولكنها تكونت من تكامل خبرات طويلة مارسها قاطنو القصور,و مروا فيها بمحاولات التجربة واستفادوا من نتائج الصواب و الخطأ ، حتى تبلورت مجموعة من النظم استخدمت في العمارة و عمران المنشآت القصورية .

ومن هذا المنظور فقد جسدت عمارة القصور العديد من القيم الاجتماعية ذات العلاقة المباشرة بين الإنسان و العمران يمكن أن نلخصها في ما يلي :

- ✓ الحفاظ على البيئة هو حفاظ على إنسانية الإنسان، فقد ترعرعت العمارة الإسلامية في رحاب فكر يدعو إلى ضرورة الحفاظ على البيئة.
- ✓ تفاعل العمران الإسلامي مع البيئة، وخصوصا عناصرها الرئيسية (الماء، و التراب و الشمس)
- ✓ البيئة هي مصدر الحياة، و كأنما جاءت هذه الفلسفة، لتحض الإنسان أن يتغذى صدى مثمرا ناميا لخلق اللّه.
- ✓ عمارة القصور هي العمارة، التي ينشدها الإسلام عمارة تتوازن فيها الروح بالمادة، لغاية توفير أهم ما وجدت من أجله (الراحة والطمأنينة للبشر).
- ✓ استطاع المعماري المحلي، فهم واقعه من خلال و توظيف مواد بيئية محلية، تمثلت في جل المواد الطبيعية المستعملة في عملية البناء (الطين ، جذوع النخيل ...)
- ✓ عمارة القصور، جاءت تناغما مع المناخ السائد بحسب الفصول فوفرت تلك المباني البرودة والدفء المنشودين و من خلال إتباعها لأساليب تنفيذية ، ظهرت في شكل البيوت، والشوارع والأزقة.
- ✓ إن ما أنجزه بناء و العمارة الصحراوية مصدره وعي وقناعات ونوازع ذهنية , والعمارة جسدت هذا التوجه الفلسفي فقد عبرت دوما عن نوازع هذا الإنسان ، الدينية أو

الاجتماعية وحتى النفسية.و يبدو ذلك جليا في جميع المنشآت المعمارية في القصور الصحراوية.

- ✓ الشمس عاملا رئيسيا في وجود المخلوقات على الأرض منذ أقدم العصور، ولازالت أقدم حكمة نرددها: (البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله طبيب). واستغلت هذه الهبة في عمارة القصور، كان الصحن سواء في البيت أو في المسجد هو الحيز الذي يمد المبنى بالنور .
- ✓ نظرا لشدة الإشعاع الشمسي في هذه المناطق , فقد عمد المعماري المحلي إلى أن يستفيد من هبة الشمس دون أن تلحق الضرر بساكنة القصور , وذلك من خلال ما ابتكره من المعالجات المناخية .

جاءت عمارة القصور في تلك المناطق الصحراوية، تعبيرا حقيقيا للجمال، وذلك لبساطتها في كل شيء بدء من الإنشاء و وصولا إلى الزخرفة. وقد كانت الغاية من العمارة بالنسبة لبناة القصور , هي تلبية الحاجات المختلفة لساكنيها , وليس الجمال إلا وحدا منها , لأن البحث عن الجمال يجب أن يتوافق مع المتطلبات الأخرى للإنسان ، إذ لا يخفى على أي إنسان أن المعمار يندرج ضمن فلسفة الكون , والنظرة الفنية والجمالية له , وكل ما يتعلق بربط الظواهر الكونية مع نفسية البشر, وكيفية قولبة ذلك كله لفائدة الإنسان وعليه فإن المكان والريح والشمس والطبيعة , كلها تدخل ضمن هذه الفلسفة وإذا منظرنا إلى آيات القرآن الكريم , فسنجدها كونا مقروءا يتناغم مع الكون المنظور .

ويبقى أن العمارة هي نتاجا فكريا بين أفراد وجماعات أي مجتمع ، وهي نتيجة لقناعات ذلك المجتمع المنتج لهذه البيئة العمرانية , والتي (القناعات) لم تتكون مرة واحدة أو ظهرت بالمصادفة , ولكنها تكونت من خلال خبرة طويلة مارسها المجتمع،مر فيها بمحاولات التجربة والخطأ، حتى تبلورت على شكل مجموعة من النظم وظفت كعناصر اتصال بين أفراده وجماعاته ، وهكذا حال كل المجتمعات وما المجتمع الصحراوي إلا وحدا منها .

قائمة المراجع :

[1] عبد الرحمان بن خلدون.. كتاب العبر ... لبنان: دار الكتاب 1959 ،ص 11

[2] الفارابي.. أراء أهل المدينة الفاضلة. بيروت: المطبعة الكاثوليكية. (ب. ت).

[3] سورة النساء

[4] كتاب النووي

[5] الفرسطائي. 1977. القسمة و أصول الأراضين. القرارة: جمعية التراث

[6] المرجع نفسه

[7] إبراهيم بن يوسف. (1959) إشكالية العمران و المشروع الإسلامي. الجزائر: مطبعة أبو داود.

[8] الفارابي.. أراء أهل المدينة الفاضلة، مرجع سابق.

[9] المرجع نفسه

[10] البخاري. (ب.ت)الجامع الصحيح - باب رحمة الناس بالبهائم. الجزائر: الشهاب للنشر.

[11] لفارابي.. أراء أهل المدينة الفاضلة، مرجع سابق

[12] البخاري ، الجامع الصحيح، مرجع سابق .

[13] إبراهيم بن يوسف. (1959) إشكالية العمران و المشروع الإسلامي ، مرجع سابق.

[14] البخاري ، الجامع الصحيح، مرجع سابق .

[15] إبراهيم بن يوسف. (1959) إشكالية العمران و المشروع الإسلامي ، مرجع سابق

المرجع نفسه .[16]

[17] أحمد صبور. (1987). المعرفة والسلطة في المجتمع العربي. بيروت: مكتبة الحياة.

[18] أحمد رضا. (1959). معجم فن اللغة. بيروت: مكتبة الحياة.

[19] البستاني: (ب.ت) دار المعارف، المجلد رقم 5، بيروت ، دار المعرفة، ص 730.

البستاني ، مرجع سابق .[20]

[21] Chaouche - Bencherif Meriama .*la micro- urbanisation et ville oasis* .Biskra: Univ de Biskra.1989.

[22] Lentilleux; *Ouargla cité saharienne.* Librairie Orientaliste Paul Geutner.Paris.1983)

[23] الفرسطائي ، مرجع سابق .

[24] علي حملاوي. (2006) نماذج من قصور منطقة الأغواط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

المرجع نفسه[25]

[26] إبراهيم بن يوسف. (1959) إشكالية العمران و المشروع الإسلامي ، مرجع سابق.

[27] نور الدين بن عبداللّه. 2013. العمارة التقليدية لمنطقتي توات و القورارة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .

[28] Lezine: *Deux ville d'Ifriqiya ,études d'archéologie d'urbanisme de démographie* .Tunis librairie orientaliste, Paul Geutner Sousse; Tunis;1971 .

[29] كتاب النووي